﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 1 - 5]

❁ مُناسَبَةُ السّورَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر سبحانه في سورة الهُمَزَة أنَّ المال والسُّلطان لا يُغنيان مِن الله شيئًا؛ أقام ﷻ الدَّليلَ على ذلك بذِكر قصَّة أصحاب الفيل(1)، ولمّا ذَكَر فيما قبلَها عذابَ الكُفّار في الآخرة؛ أخبر هنا بعذابِ ناسٍ منهم في الدُّنيا(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَابِيلَ﴾: أصل (أبل) يدلُّ على احتواء باطن الشَّيء على غضٍّ أو لطيف كثير، كالماء في جوف إبل السَّحاب والجِمال(3)، ومنه: الإبل، يقع على البُعران الكثيرة، ولا واحد له مِن لفظه(4)، وهي مؤنَّثة؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحدَ لها مِن لفظها إذا كانت لغير الآدميّين، فالتَّأنيث لها لازمٌ، وإذا قالوا: إبلان وغنمان، فإنَّما يريدون قَطيعَيْنِ مِن الإبل والغنم، وأبَلَ الوحشيُّ يأبل أُبولًا، وأبل أبْلًا: اجتزأ عن الماء تشبُّهًا بالإبل في صبرها عن الماء، وكذلك: تَأبَّلَ الرَّجُل عن امرأته؛ إذا ترك مقاربَتَها، وأبَّلَ الرَّجُل: كثُرت إبلُه، وإبلٌ مُؤبَّلة: كَثيرَة، وأبل الرَّجُل يَأبَل أبالةً؛ إذا حَذِق مَصْلحة الإبِل والشّاء، والإبّالة: الحزمة مِن الحطب تشبيهًا به، وقيل: طيرًا أبابيل: يَتبع بعضُها بَعْضًا إبّيلًا إبّيلًا، أي: قَطيعًا خَلْف قَطيع، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، أي: متفرّقة كقطعات إبلٍ، الواحدُ إبّيلٌ وإبَّوّل(5).

2) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصل (سجل) يدلُّ على انصباب شيء بعد امتلائه، السَّجْلُ: الدَّلو

(1) السُّيوطيُّ، تناسق الدُّرر، ص: 167، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 16/ 1675، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 30/ 403.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 543.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبل).
(4) الرّاغب، المفردات: (إبل).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (أبل)، والرّاغب، المفردات: (إبل).

العظيمة، وهو ملآن ماءً قلَّ أو كثُر، ولا يُقال له، وهو فارغٌ: سَجْلٌ، ولا ذَنوبٌ، والجمع سِجال، وسَجَلْتُ الماءَ، فانْسَجَلَ، أي: صببتُه فانصبَّ، وأسْجَلْتُهُ: أعطيتُه سَجْلًا، والسِّجِلُّ: قيل حَجَرٌ كان يُكتَب فيه، ثُمَّ سُمِّي كلُّ ما يُكتَب فيه سجلًّا، والسِّجّيلُ: حجارة مِن طينٍ مختلِط، طُبِخت بنار جهنَّم، مكتوب عليها أسماءُ القومِ، وأصلُه فيما قيل: فارسيٌّ معرَّب[1].

3) ﴿كَعَصْفٍ﴾: أصل (عصف) يدلُّ على خفَّة وسرعة، العَصْفُ: بقلُ الزرع[2]، العَصْفُ والعَصيفَةُ: الذي يُعْصَفُ مِن الزَّرعِ، ويقال لحطام النَّبت المتكسّر: عَصْفٌ[3]، وعاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكْسِرُ الشَّيء، فتجعله كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيهًا بذلك، وعصفنا الزَّرع نعصفه، أي: جززنا ورَقَه الذي يَميل في أسفله؛ ليكونَ أخفَّ للزَّرع، وإن لم يُفعَل؛ مالَ بالزَّرع[4]، ومكانٌ مُعْصِفٌ، أي: كثير الزَّرع، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي: كزرعٍ قد أُكِلَ حَبُّهُ، وبَقيَ تِبْنُهُ، وعَصَفَتِ الرّيحُ، أي: اشتدَّتْ، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصوفٌ، ويومٌ عاصِفٌ، أي: تَعْصِفُ فيه الرّيحُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

افتُتِحت هذه السّورة الكريمة بأسلوب الاستفهام الذي خوطب به النَّبيُّ ﷺ للتَّسلية والتَّثبيت والتَّقرير والامتنان بنعمة اللّه تَعالى على أهل مكَّة وقدرته سبحانه في إهلاكِ هؤلاء الذين جاؤوا مِن الحبشة واليمن مستصحبين معهم الفيَلَةَ لهدم الكعبة وتخريبها، وكان على رأسهم في ذلك أبرهةُ الحَبَشيُّ، فجعل اللّه تَعالى سبحانه

كـــرَّم الـلـه تَعالى الكعبةَ، فحفظها مِن الأعداء، وأنعم على أهلها، فردَّ عنهم كيد أهل البغضاءِ

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (سجل).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عصف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عصف).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (عصف).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عصف).

مكرَهم وسعيَهم في تخريب الكعبة في خسارةٍ وبطلانٍ، بأنْ سلَّط عليهم جماعاتٍ كثيرةً متفرّقةً مِن الطَّير أتَتْهم مِن كلِّ جانب في تتابُعٍ تَرميهم بحجارة مِن طين متحجِّر محرق، فصاروا بسبب ذلك صرعَى هالكين، حالُهم في تمزُّقِهم وتناثُرِهم كحال أوراق الأشجار اليابسة، أو التِّبْن الذي تأكله الدَّوابُّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعَةُ الاستفتاحِ بالاستفهام:

تشويقٌ وإثارةُ انتباه، وتذكيرٌ بعظيم منَّة الله

الافتتاح بأسلوب الاستفهام فيه تشويق لما بعده، مع إثارة الانتباه مِن أوَّل الكلام إلى ما سيأتي في السّورة مِن معانٍ جليلة، منها: التَّنبيه إلى خطورة الإعجاب بالنَّفس والاغترار بالدُّنيا، والتَّذكير بعظيم منَّة الله تعالى على قريش المعرضين عن الإيمان بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، فالعَرَب لا يخفى عليهم قصَّة أصحاب الفيل، وما كان مِن إهلاك الله تَعالى إيّاهم بمعجزة الطَّير الذي أسقط عليهم حجارة صغيرة الجِرم عظيمة الأثر، فأهلكتهم عن بَكرة أبيهم، وقد حفظ الله تعالى بيتَهُ الذي كان سببًا في حفظ قريشٍ نَفْسِها.

نوعُ الاستفهام وغرضُه في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

التَّقرير بفضل الله تعالى بـرَدِّ كيد المعتدين، وتقرير نُبوَّة سيّد المرسَلين

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ تقريريٌّ[2]؛ إذ الهمزةُ فيه لتقريرِ الرُّؤية بإنكارِ عَدَمِها[3].

المعنى: لقد علمتَ أيُّها الرَّسول الكريم عِلمًا جازمًا ليس فيه شكٌّ أو ريبٌ، ما فعلَه ربُّك الجليلُ بأصحاب الفيلِ، الذين قدموا لهَدْمِ الكعبة؛ إذ أهلكَهُم إهلاكًا عظيمًا، كان فيه مِنَ العبرةِ والعِظَةِ ما

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 532 - 541، وطنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 509 - 512.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 544، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 20/ 496، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 464.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 200.

لا يخفى، وكان فيه أيضًا دلالَةٌ واضِحَةٌ على جليل قدرة الله تعالى، وعنايتِهِ ببيتِهِ الحرام[1].

"وهذا التَّقرير مستعمَل مجازًا في التَّكريم إشارة إلى أنَّ ذلك كان إرهاصًا للنَّبيّ ﷺ، فيكون مِن باب قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: 1 - 2]، وفيه مع ذلك تعريضٌ بكُفران قريش نعمةً عظيمةً مِن نِعم الله عليهم؛ إذ لم يزالوا يعبدون غيره"[2].

وإنَّما عدل عن الإخبار بأسلوب (قد رأيتَ) أو (قد علمتَ) إلى الاستفهام؛ لِما فيه مِن حمْلٍ للمخاطَب على الاعتراف بعد التَّدبُّر والأناة[3].

نكتة دخول همزة الاستفهام على أداة النَّفي ودلالتها التَّحقيقيَّة:

تأكيدٌ وتعظيم للقُدرة الباهرة، وتعجيب مِن إعراض الطّائفة الكافرة

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ معناه الإيجاب، أي: قد علمتَ؛ وذلك لأنَّ هَمزة الاستفهام دخلت على (لَمْ)، وهي حرفٌ دالٌّ على النَّفْي، والاستفهام في قوَّةِ النَّفي، فاجتمع نفيان، ومِنَ المتقرّر أنَّ نفي النَّفي إيجابٌ[4].

وجاء التَّعبير بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ دون (أرأيت)؛ لأنَّ دخول أداة الاستفهام على النَّفي آكَد في إثبات عِلم المخاطَب بما حدث لأصحاب الفيل[5]، "فهو تعجيب له صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بما فعله الله ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ الذين قصدوا تخريبَ الكعبة مِن الحبشة"[6].

فهذه حادثة عجيبة تدلُّ على قدرة الله ﷻ وكمال عِلمه وحكمته سبحانه، لا ينكرها العربُ، وقد شاهدها بعض مَن عاصر نزول

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 510.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 544 - 545.
(3) أحمد بدويٌّ، مِن بلاغة القرآن، ص: 127.
(4) الزُّحيليٌّ، التَّفسير المنير: 30/ 406.
(5) الشَّعراويٌّ، الخواطر الإيمانيَّة: 2/ 1122.
(6) القنَّوجيٌّ، فتح البيان: 15/ 389.

الوحي على النَّبي ﷺ، فكيف يحقُّ لهم، وقد رأوا هذه المعجزة، وعَلِموها عِلمَ يقينٍ أن يُشرِكوا باللّه ربِّ هذا البيت الحرام، الذي حفظه بهذا الطَّير الضَّعيف مِن أذى مَن أراد به السّوء[1]؟.

نوع الرُّؤية في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وغرضُ التَّعبير بها:

ما أخبَر بوقوعِه ربُّ العالمين هو أصدق ممّا تراه العين

يجوز أن تكون الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مجازيَّةً مُستعارَة للعِلم البالغ مِن اليقين حدَّ الأمر المرئيّ؛ لتواتُر ما فعل اللّه بأصحاب الفيل بين أهلِ مكَّة وبقاء بعض آثار ذلك يشاهدونه، أي: ألم تعلم علمًا رصينًا متاخمًا للمشاهَدةِ والعَيانِ باستماع الأخبار المتواترة، ومعاينةِ الآثار الظّاهرة؟.

ويجوز أن تكون الرُّؤية بصريَّة بالنِّسبة لمَن تجاوز سِنُّه نيِّفًا وخمسين سنةً عند نزول الآية، ممَّن شَهِد حادثَ الفيل غُلامًا أو فتًى مِثل أبي قُحافة، وأبي طالب، وأُبَيّ بن خلف.

ويجوز أن تكون بصريَّة تُجوِّز بها عن العِلْم على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة أو المجاز المرسَل؛ لأنَّها سببُهُ[2].

وإنَّما جاء التَّعبير عن العِلم بالرُّؤية؛ إيماءً إلى أنَّ الخبَر بهذا القَصَص متواترٌ مستَفيضٌ، فالعِلم به مساوٍ في قوَّة الثُّبوت مع الوضوح للعِلم النّاشئ عن الرُّؤية والمشاهَدَة، وخلاصة ذلك: إنَّك قد علمتَ ذلك علمًا واضحًا لا لَبْسَ فيه ولا خفاء[3].

دلالةُ تسليط الاستفهام حول الكيفيَّة:

استحضار عجائب قدرة الله العظيم، والإشارة لشدَّة عقابه الأليم

عُلِّقَ فعل الرُّؤية بكيفيَّة فعله ﷻ لا بنفسه، فلم يرد البيانُ القرآنيُّ: (ألمْ تَرَ ما فعل ربُّك)، والغرضُ من هذا تهويل الأمر،

(1) المراغيُّ، تفسير المراغي: 30/ 242 - 243.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 464، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 545.

(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 799، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 289، والمراغيُّ، تفسير المراغي: 30/ 243.

والإشعارُ بوقوعه "على كيفيَّة هائلة وهيئة عجيبة دالَّة على عِظَم قُدرة الله تعالى، وكمال عِلْمِه وحكمته، وعزَّة بيته، وشرف رسوله ﷺ، فإنَّ ذلك مِن الإرهاصات؛ لِما روي أنَّ القِصَّة وقعت في السَّنة التي وُلِد فيها النَّبيُّ ﷺ"[1].

فالمعنى: "ألم تعلم الحالَ العجيبة والكيفيَّة الهائلة الدّالَّة على عِظَم قُدرة الله تعالى وكمال عِلمه وحكمته، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام، فتلك حال قد جاءت على غير ما يُعرَف مِن الأسباب والعِلل؛ إذ لم يُعهَد أن يجيء طَيْرٌ في جهة، فيقصد قومًا دون قوم، وهم معهم في جهة واحدة، فذلك أمارة أنَّه مِن صُنع حكيم مدبِّر، بَعَثَه لإنقاذ مقصدٍ معيَّن"[2].

بلاغة استعمال ﴿فَعَلَ﴾ دون عاقب أو عذَّب أو صنع:

دلالـــة لـفـظ الـفـعـل عـلى قـوَّة البطش، وعموم معناه في إهلاك الجيش

لفظ الفعل يدلُّ على ظهور الأثر، وسرعة الحدث، ومنه الانفعال، وهو قوَّة التَّأثير وسرعة الاستجابة[3]؛ ولذا فقد أوثر التَّعبير بـ ﴿فَعَلَ﴾ دون عاقَب، أو عذَّب، أو صَنَع؛ لِما يتميَّز به لفظ الفعل مِن الإيحاء بقوَّة البطش والمفاجأة والمداهمة[4].

وأيضًا لم يقل: جَعَل، ولا خَلَق، ولا عَمِل؛ لأنَّ فعل (خَلَقَ) مُستَعمل لابتداء الفعل، وهو مجعولٌ للكيفيّات، كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، و(عَمِلَ) بعد الطَّلب، و(فَعَلَ) عامٌّ، فكان التَّعبير به أوْلى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى "خَلَق الطُّيور، وجعل طبْعَ الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظَ البيت، ولعلَّه كان فيهم مَن يستحقُّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 464، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 354.

(2) المراغيُّ، تفسير المراغي: 30/ 242 - 243.

(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (فعل)، وعليٌّ اليمنيُّ: أسرار التَّرادف في القرآن الكريم، ص: 136، 137.

(4) إبراهيم المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن: 4/ 393.

الإجابة، فلو ذكر الألفاظ الثَّلاثة؛ لطال الكلام؛ فذَكَر لفظًا يشمل الكُلَّ"[1].

بلاغة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة دون الأُلوهيَّة:

عناية الله تعالى ببيته الحرام، وبنبيِّه محمَّد ﷺ

أوثر التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة؛ لما فيها مِن معاني التَّدبير والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[2]؛ وهذا يتناسب مع ما تتناوله القِصَّة مِن حفظ الله تعالى وعنايته ببيته الحرام، وإهلاك مَن أراده بسوء.

فهذه مِن جملةِ المِنَنِ التي أنْعَمَ الله تَعالى بها على قريشٍ، فيما صرف عنهم مِن كيدِ أصحاب الفيل، الذين عزموا على هدم الكعبةِ، فأهلكهم الله تَعالى، وخيَّب سعيهم[3].

وأيضًا فإنَّه يتناسَب أيضًا مع ما أعدَّه الله تعالى لنبيِّه ﷺ مِن الكرامة بهذه الحادثة، التي كانت مِن إرهاصات بعثته ﷺ، وقد حفظ الله تعالى بيته وقِبلته.

وهذا كلُّه مِن عظيم الإنعام الذي يناسبه التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة.

دلالة إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب في ﴿رَبُّكَ﴾:

تشريف المضاف، وتذكير بعظيم الألطاف

أُضيفَ اسم الرَّبِّ إلى الضَّمير المرادِ به النَّبيُّ ﷺ؛ تشريفًا للمضافِ إليه، وفي التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى عَظَمَةِ قدرة الله ﷻ[4]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المرادَ مِن التَّذكير بقصَّةِ الفيلِ بيانُ كرامةِ النَّبيِّ ﷺ وعلوِّ قدرِهِ تقديمًا لشأنِ نُبوَّته؛ إذ كان ذلك في العامِ الذي وُلِدَ فيه ﷺ[5]، وأيضًا "لإيناسه ﷺ، وتثبيت قلبه، وتقوية

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 289 - 290.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 250، وأحمد الزّامليُّ، الآيات القرآنيَّة الواردة في الرَّدِّ على البدع المتقابلة - دراسة عقديَّة: 1/ 194.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 483.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 32/ 345.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 546.

عزمه، وللإشعار بأنَّ الله تعالى معه ينصره، ويؤيِّده، ويُنعِم عليه بما هو أهله مِن الإنعام والتَّكريم"[1].

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِأَصۡحَٰبِ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق[2]، والإلصاق هنا حقيقيٌّ، وهو تعليق الشَّيء بالشَّيء على وجه الاتِّصال، أي: أصابهم العذاب إصابةً مباشرة.

غرض التَّعبير بمفردة (أصْحابِ):

أصل (صحب) يدلُّ على مقارَنَة شيء ومقارَبَته، والصّاحبُ: المُلازِمُ، إنسانًا كان، أم حيوانًا، أم مكانًا، أم زمانًا[3].

نَـزَلـوا بكُفرهم إلـى الـدّونـيَّـة، وسـفـلـوا عـن الـفـيـل في البَهيميَّة

وقد جاء التَّعبير بقوله: ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾، ولم يقل: (أرباب الفيل، أو مُلّاك الفيل)؛ "لأنَّ الصّاحب يكون مِن الجِنس، فقوله: ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ يدلُّ على أنَّ أولئك الأقوام كانوا مِن جنس الفيل في البهيميَّة وعدم الفهم والعقل"[4].

دلالة إضافة ﴿بِأَصۡحَٰبِ﴾ إلى ﴿ٱلۡفِيلِ﴾:

تـحـقـيرُ شـأن أصحاب الفيل، الـذي جُـعِـل كـيـدُهـم في تضليل

جاء وصف جيش أبرهةَ بأنَّهم ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾؛ لأنَّهم أحضروا معهم الفيَلة؛ ليستعينوا بها على هدم الكعبة، وعلى إذلال أهل مكَّة[5].

وفي إضافة ﴿بِأَصۡحَٰبِ﴾ إلى ﴿ٱلۡفِيلِ﴾ تحقيرٌ لهؤلاء المعتدين؛ وذلك لأنَّه إذا حَصَلَت مصاحبةٌ بين اثنين، فإنَّهُ يُقال للأدْوَن: إنَّه صاحِبُ الأعلى، فيُقال مثلًا: زيدٌ صاحبُ الوزير، ولا يُقال للأعلى:

(1) إبراهيم المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن: 4/ 393.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (صحب).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 290.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 610، وطنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 510.

إنَّه صاحِبُ الأدْوَن، فلا يُقال: الوزيرُ صاحب زيدٍ، هذا هو الأصلُ؛ ولذلك يُقال لِمَن صَحِب الرَّسول ﷺ: إنَّهم الصَّحابة، فقول الله تَعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدلُّ على أنَّ أولئك الأقوام كانوا أقلَّ شأنًا، وأدْوَنَ مرتبةً مِن الفيل، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]، ويُؤيِّدُ ذلك أنَّهم كلَّما وجَّهوا الفيلَ إلى جهة الكعبة؛ امتَنَعَ، وفرَّ، بخلاف ما كانوا هُمْ عليه مِنْ ذلك الإقدامِ الباطلِ، فدلَّ هذا على أنَّ الفيل أعلى رتبةً مِنْهُم، وأنَّهُم دونَهُ[1].

ويُلمَح في الإضافة أيضًا غرض التَّعظيم للمضاف إليه ﴿ٱلْفِيلِ﴾؛ فتتجلَّى قدرة الله تَعالى منتصرة على ما يعظم في نفوس البشر بجند صغير يطير فوق هذا الجيش، وينتصر عليه بأمر الله ﷻ.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلْفِيلِ﴾، وإفرادِه:

جـوازُ الحمل على الجنس والعهد، وحضور أحداث القصَّة برغم البُعد

في إفراد لفظ الفيل وجهان، أحدُهما: أنَّهم كان معهم فيل واحد، والآخَر: أنَّه كان معهم ثمانية أفيال، وقيل غير ذلك، وإنَّما أفرَد ﴿ٱلْفِيلِ﴾؛ لأنَّه نسبهم إلى الفيل الأعظم؛ وذلك بالإضافة إلى ما في الإفراد مِن اتِّفاق رؤوس الآي[2].

وبناءً على هذين الوجهين السّابقيْن يُحمَل التَّعريف في ﴿ٱلْفِيلِ﴾، فعلى الوجه الأوَّل يكون التَّعريف في الفيل للعهد، وهو فيلُ أبرهةَ قائدِ الجيش، وكان اسمُ الفيلِ محمودًا، وعلى الوجه الثّاني يكون التَّعريف للجنس، ويكون العهد مستفادًا مِن الإضافة[3].

ولا يخفى أنَّ التَّعريف هنا يفيد ربط كلّ عناصر السّورة بقصَّةٍ يعرفها الجميع، ممّا يزيد قوَّة الحُجَّة، فكلُّ العرب يعرفون حادثة الفيل، وبها كانوا يؤرِّخون.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 290.
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 540، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 523.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 547.

نكتة تعدُّد الاستفهام لمستفهَمٍ عنه واحد في قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾:

انـتـقـالٌ مِـن الـحـدث إلى المـآل، وإظـهـار لـقـدرة ذي الجلال

"الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ للتَّقرير أيضًا، أي: لقد جعل الله تعالى مكرَ أصحاب الفيل وسعيَهم لتخريب الكعبة، ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾، أي: في تخسير وإبطال وتضييع، بأنْ تبَّرهم سبحانه تتبيرًا، ودمَّرهم تدميرًا"[1].

فهذا بيانٌ إجماليٌّ لِما فعَل الله بهم؛ ولذلك عطف على الجملة الاستفهاميَّة ما بعدها[2].

وليس هذا مجرَّد إعادة لفظيَّة للاستفهام، فالجملة تنقل السّامع مِن الحديث عن الحَدَث إلى الحديث عن مآل الحَدَث، وفيه ربطٌ بنائيٌّ يثبت الفكرة (تذكير المخاطَب بتولّي الله تعالى حماية بيته)، ويجعل الآيتين وِحدةً واحدة، والله ﷻ إذا كان قد حمى بيته مِن جيش كبير؛ فهو قادر على أن يحميَ عباده المؤمنين.

بلاغة التَّعبير بفعل الجعل، فلم يقل: (ألمْ يضلل كيدهم):

رَدَّ الله كيدَهُم في نـحـورهـم، وأنقذ النّاس مِن شرورهم

لفظُ (جَعَلَ) عامٌّ في الأفعال جميعِها، وهو أعَمُّ مِن (فَعَلَ) و(صَنَعَ) ونحوِهما[3]، ومعناه المحوريُّ: تحويل شيءٍ إلى حالٍ أو هيئة خاصَّة[4].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾: صيَّرهم الله جلَّ ذكرُه هَلكَى[5]، فالتَّعبير بلفظ الجعل - بما فيه مِن العموم، وبما يحمله مِن الدَّلالة على التَّحويل والتَّصيير - يشير إلى أنَّ الله تعالى أضلَّ كيدهم، وأعاد ذلك الكيد، وحوَّله لهلاكهم، فصار ذلك بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 511.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 355، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 32/ 333.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (جعل).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(5) المنتجَب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 6/ 465 - 466، وأبو البقاء الكفويُّ، الكُلّيّات، ص: 348.

﴿٥٠﴾ [النّمل: 50]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطّارق: 15 - 16]، فإنَّ قلْبَ مكرِهم عليهم وردَّ كيدِهم في نحورهم أبلغُ في التَّبكيت والتَّعذيب وإظهارِ القهر والغلبة.

إضافة إلى ما في حرف الظَّرفيَّة مِن المبالغة في إحاطة كيد الكافرين بالتَّضليل والتَّضييع، وما في التَّعبير بالمصدر مِن الدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام، وما في ذلك مِن الرِّعاية على الفاصلة، وكلُّ هذا كان سيفوت لو قيل: (ألم يضلل كيدهم).

براعة ذكر الكيد دون الجيش والجند:

ما أضمروه كان شرًّا ممّا أظهروه

الكيدُ: نوعٌ مِن الاحتيال[1]، والمذموم منه - وهو الغالب - : احتيالٌ على إلحاق ضَررٍ بآخَرِ ومزاولَة إيقاعِه عليهِ[2]، وهو أيضًا إرادة المضرَّة بآخرَ على وجهِ الخفاءِ[3].

وإنَّما سُمّيَ صنيعُ أصحابِ الفيلِ كيدًا مع أنَّه كان ظاهرًا غير خَفيٍّ؛ إذ كانوا يُصرِّحون بإرادَةِ هدم الكعبةِ؛ لأنَّ الذي كان في قلبِ أبرهةَ الأشْرَمِ شرٌّ ممّا كان يُظْهِرُهُ؛ إذ كان قلبُهُ منطويًا على حسدِ العرَبِ، وتحويلِ الشَّرفِ الحاصلِ لهم؛ بسبب الكعبةِ منهم ومِنْ بلدِهم إلى نفسهِ وبلدتِهِ[4].

بلاغة المجاز في التَّعبير عن الحرب بالكيد:

فضح نيّاتهم، وكشف خباياهم

سَمّى اللّه تَعالى حربَهُم كيدًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾؛ لأنَّه عملٌ ظاهِرُه الغضبُ مِن فِعْلِ الرَّجُلِ الكنانيِّ الذي قعد في الكنيسية التي بناها أبرهةُ، واسمُها: القُلَّيْس، إلّا أنَّ ذلك كان سببًا تعلَّلوا به لهدم الكعبةِ وحرب مجاوريها؛ لصَرْفِ العربِ عن حجِّها

(1) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (كيد).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548.
(3) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 688.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 291.

إلى قصد القُلَّيس في صنعاء، فيُبدِّلون دينَهُم، أو أنَّ المرادَ أنَّهم أظهروا بناءَ الكنيسةِ، وهم يُبطنونَ إبطالَ الحجِّ إلى بيت الله تَعالى الحرامِ[1]، فهو مجاز بذكر السَّبب وإرادة المسبَّب.

دلالة إضافة الكيد إلى الضَّمير:

دمَّـر الـلـه ذو الـجـلال كـيـدًا كادت تزول منه الجبال

قوله تعالى: ﴿كَيْدَهُمْ﴾ يشمَلُ كلَّ ما دبَّروه، وأعدّوه مِن خُطط، ووسائل، وأعمال، وجيش كبيرٍ لا قِبَل لقبائل العرب بمواجهتِهِ، كلُّ ذلك قصدَ هدم الكعبةِ، وصرفِ العرب عن حجِّهِ إلى قصدِ القُلَّيس بصنعاءَ.

والإضافة في ﴿كَيْدَهُمْ﴾ معنويَّة (محضة)، غرضها تعظيم المضاف، "فقد كان كيدُهم عظيمًا غلبوا به مَن ناوأهم مِن العرب"[2]، ولكنَّه لا يعظم أمام إرادة الله المطلقة، فهو مِن باب قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: 46].

وفي هذه الإضافة إشارة إلى أنَّه تعالى لا يعاقب إنسانًا إلّا على فعله الذي اقترفه، فعقابُ أصحابِ الفيل كان جزاءً وفاقًا لكيدهم، بأنْ ردَّ الله هذا الكيد إلى نحورهم.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيّة:

مَـن تـعـرَّض لـشيء مِـن حرمات الله وقع في مكرِه، وعاد عليه وبالُ أمرِه

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[3].

والظرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ ظرفيَّةٌ مجازيَّة، فقد استُعير حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ لمعنى المصاحَبَة الشَّديدة، والمعنى: أبطل كيدَهم بتضليلٍ، أي: مصاحبًا للتَّضليل لا ينفكُّ عَنْهُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 255.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.

والمرادُ: أنَّه أبطله إبطالًا كُلِّيًّا؛ إذ لم ينتفعوا بقوَّتِهم وكثرةِ عَدَدِهم في مقابلِ ضعف أهل مكَّةَ وقِلَّة عددهم[1].

وأيضًا فإنَّ في التَّعبير بالظَّرفيَّة إشارة إلى انغماسهم في الهلاك والضَّياع، كما يقال: سعيُ فلان في ضلال، والمعنى: أنَّ سعيهم كان قد بانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّه كان انحرافًا وضلالًا[2].

فقوله تعالى: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾، معناه: في محيط مِن الضَّياع والهلاك والبوارِ، فكأنَّ تدبيرهم غُمِر في بحر مِن الضَّلال لا خروج له منه.

"وهذا مشير إلى أنَّ كلَّ مَن تعرَّض لشيء مِن حرمات اللّه كبيت مِن بيوته أو وليٍّ مِن أوليائه أو عالم مِن عُلَماء الدِّين، وإنْ كان مقصِّرًا نوعَ تقصيرٍ وقع في مكره، وعاد عليه وبالُ شرِّه"[3].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿تَضْلِيلٍ﴾:

المبالغة في المعنى

الضَّلال: هوَ العدول عن الطَّريق المستقيم، وضدُّه: الهداية[4]، وأصله: ضياع الشَّيء وذهابُه في غير حقِّه[5]، ومعناه المحوريُّ: غياب شيءٍ في أثناء آخرَ حتَّى لا يتميَّز أحدهما من الآخر[6].

والتَّضليل: جعلُ غيرك ضالًّا، فلا يهتدي لمقصودِه، وهو هنا مجازٌ؛ إذ المرادُ الإبطال وعدم إدراك المقصود[7]، فهو هنا مستعارٌ للإبطال[8].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿تَضْلِيلٍ﴾ دون (ضلال):

أوثر التَّعبير بالتَّضليل؛ اعتبارًا بمعاني صيغة التَّفعيل

كلمة ﴿تَضْلِيلٍ﴾ على زنة (تفعيل)، وهي صيغة تأتي لعدَّة معانٍ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 291.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 255.
(4) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضلل).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 468.

منها: التَّعدية، نحو: قوَّمتُ زيدًا وقعَّدتُه، والتَّكثير في الفعل، نحو: جَوَّل، وطوَّف، أي: أكثر الجَوَلان، والطَّوفان، أو في المفعول، نحو ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]، أو في الفاعل، نحو: مَوَّتَتِ الإبلُ، وبَرَّكَتْ.

ونسبة الشَّيء إلى أصل الفعل، نحو: فسَّقْتُ زيدًا، أو كفَّرتُه، أي: نسبتُه إلى الفسق، أو الكفر[1].

ولا مانع مِن إرادة هذه المعاني أو بعضها في هذه الآية، فقد كان القوم ضُلّالًا عن الهدى، وأكثروا في هذا الضَّلال، وأسرفوا، فنُسِبوا إلى الضَّلال نسبةَ الرَّجُل إلى قبيلته، والعامل إلى صَنْعَته، وقد ضلَّل الله تعالى كيدَهم وأبطله، وهذه المعاني لا يفي بها لفظ (الضَّلال)، فضلًا عمّا أدَّى إليه التَّعبير بالتَّضليل مِن الرِّعاية على الفاصلة.

بلاغة عطف الإرسال على السّابق:

الجمع بين كونه مبطلًا لكيدهم، وكونه عقوبة لهم

قول الله تَعالى: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾، والمعنى: وكيف أرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم ... إلى آخره، وذلك أنَّهُ بعد أن جاءَ التَّقريرُ على ما فعل الله تَعالى بهم مِن إبطالِ سعيهم؛ عُطِفَ عليه التَّقريرُ بِعلم ما حلَّ بهم من العذابِ لأجل صنيعِهم، وهذا مِن عناية الله تَعالى ببيته المعظَّم؛ إظهارًا لتوطئةِ بعثة النَّبيِّ ﷺ بدينه في ذلك البلد الحرام؛ إجابة لدعوة نبيِّهِ إبراهيم عليه السلام، وتكون جملة: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٍ﴾ معترضةً بين الجملتينِ المتعاطِفَتَيْنِ.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ معطوفًا على قولِهِ قبلُ: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٍ﴾، فيكون داخلًا في حيِّز التَّقرير الثّاني، بأنَّ الله جَعَلَ كيدَهم في تضليل، وإنَّما نُصَّ على هذا؛ لجمعه بين كونه مُبْطِلًا لسعيهم وكيدهم، وكونه جزاءً لهم

(1) الحملاويُّ، شذا العَرف، ص: 31.

وعقوبةً، وعُبِّر بالفعل الماضي (أرسل) بالنَّظر إلى أنَّ الفعل المضارع في قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ قد قُلِبَ زمانُه إلى المُضيّ؛ لدخول حرف (لم)، فإنَّها تنفي المضارعَ، وتجزِمُهُ، وتقلبُ زمَنَهُ إلى المُضيِّ، والمعنى: أليس قد جعل كيدَهم في تضليل[1]؟.

فائدة التَّعبير بالإرسال دون البعث:

أصل البعث: إثارة الشَّيء وتوجيهُه[2]، وأصل الرِّسْل: الانبعاثُ على تُؤَدة وامتداد[3]، والإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها، والبعث لا يقتضي ذلك[4].

طـيرٌ مجنَّدة أبابيل، أُرسِلت برسائل مِن العليِّ الجليل

وعلى هذا كان في اختيار لفظ الإرسال إشارة إلى أنَّ الطَّير جاءت بأمر مِن اللّه وفي رحاب تدبيره المحكم، فهي جند وجَّهه ربُّنا ﷻ بمهمَّة مخصوصة.

فهذا الإهلاك كان عقوبة مقصودة قدَّرها اللّه ﷻ، وممّا يؤكِّد ذلك ما روي أنَّ هذه الطَّير الأبابيل، التي أرسلها اللّه تعالى على القوم مع كلِّ طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حَجَر في منقاره، وحَجَران في رِجلَيْه[5]، وقد كُتِبَ فيها أسماءُ القوم[6]، فكأنَّ كلَّ طائر منها قد أُرسِل برسالة خاصَّة لمَن وُكِّل به مِن جيش أبرهة، أدّاها هذا الطّائر على أكمل وجه بأن رمى حَجَرَه (بلَّغ رسالته) إلى صاحبه، فكان التَّعبير بالإرسال أبلغ، وكان بالسِّياق أنسب، وجاء الفعل في صيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق الوقوع.

دلالة التَّعبير بحرف الاستعلاء:

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء

تمكُّنٌ واستعلاءٌ وقـهـر، بـمَـن أرادوا بالبيت الشَّرَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 549.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (رسل).
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 103.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 485.
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 198.

حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[1]، وهذا الاستعلاء هنا حقيقيٌّ، فالطَّير فوقهم على الحقيقة ممّا يدلُّ على تمكُّن الطَّير من هؤلاء المعتدين، وعلى ذُلِّ المعذَّبين وضعفهم أمام هذا الجند الضَّئيل من جنود الله تعالى.

غرض تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعول به ﴿طَيْرًا﴾:

تخصيص المعتدين بالعذاب الوبيل، والطَّير الأبابيل

قدِّم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعول به ﴿طَيْرًا﴾؛ لإفادة القصر والتَّخصيص، فوقوع العذاب كان يقصدهم هم دون سواهم، فلم يُصَب أحدٌ من أهل مكَّة بحَجَر من هذه الحجارة، فالإرسال كان على جيش أبرهة وحدهم، فالطَّير لم تكن ترمي إلّا هؤلاء دون مَن حولهم[2].

فهذا التَّخصيص يُبرز عدل الله سبحانه؛ إذ لم يُصَب غيرُ المعتدين على بيته الحرام، وفيه أيضًا ردٌّ قوي على الملحدين؛ لأنَّهم زعموا في نحوِ الزَّلازل والرِّياح والصَّواعق وغيرها - ممّا عذَّب الله تعالى بها أقوامًا - أعذارًا واهيةً، كَزَعْمِهم بأنَّها من جملةِ الصُّدفِ التي تقعُ في الطَّبيعة، أمّا حادثة الفيلِ؛ فلا تتأتّى فيها هذه الأعذار؛ لأنَّه لا يوجدُ في الطَّبائع أن تُقبِل طيرٌ معها حجارة، فتقصد قومًا دون آخرين، فترميهم لها، وتقتلُهم، ثُمَّ إنَّه لا مَطْعَن فيها مِنْ جهةِ النَّقْلِ؛ لأنَّه لم يكن بين حادثةِ الفيل ومبعث الرَّسول ﷺ إلّا بضعٌ وأربعون سنة، ويوم قرأ الرَّسول ﷺ هذه السّورة كان قد بقي بمكَّة جماعةٌ أدركوا تلك الحادثةَ، ولو كان النَّقل فيها ضعيفًا؛ لبادروا إلى التَّكذيب، فلمّا لم يحصُل ذلك مِنْهُم؛ عُلِمَ أنَّه لا مَطْعَن فيها[3].

ومع ما تقدَّم؛ فإنَّ في تقديم شبه الجملة تشويقًا لمعرفة المفعول

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 256.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 289.

به، فإذا ذُكِر؛ تمكَّن مِن النَّفس أشدَّ التَّمكُّن، وأتاح هذا التَّقديم أن يأتي وصف الطَّير فاصلة، فكان حُسنًا على حُسنٍ.

نكتة تعدية فعل الإرسال بـ (على) دون (إلى):

الشَّائع في فعل الإرسال أن يُعَدَّى بـ (إلى)؛ لكونه يتضمَّن رسالة ورسولًا ومرسِلًا ومرسَلًا إليه، غير أنَّه قد عُدِّي هاهنا بحرف الاستعلاء؛ لكونه إرسالًا بغرض الإضرار[1].

نكتة استعمال اسم الجمع ﴿طَيْرًا﴾ دون الجمع (طيورًا):

المبالغة في الدَّلالة على الضَّعف البشريّ أمام القهر الإلهيّ

الطَّير: اسم جنس، والمرادُ هنا آحاد الجنس وجماعتُه[2]، وقد أوثر التَّعبير به دون (طيور)؛ لما فيه مِن الدَّلالة على الضَّعف والتَّحقير؛ لأنَّ قلَّة المبنى في ﴿طَيْرًا﴾ تدلُّ على قلة المعنى، وفي ذلك إشارة إلى حقارتِهم عن أن يُعذَّبوا بأمرٍ عظيم؛ وذلك لأنَّهم عظَّموا أنفسهم، وتجبَّروا على خالقهم بعزمِهم القبيح لبَيْتِهِ الحرام، فقال تعالى مبيِّنًا أنَّه أنزلَ بهم ما لا يقتُلُ مثلهُ في العادةِ: ﴿طَيْرًا﴾[3].

ولا شكَّ في أنَّ هذا أظهرُ في الدَّلالة على عظيمِ قدرة الله تَعالى وجليلِ سلطانه مِن أن يكون هلاكهم بطيرٍ كبارٍ، وأيضًا فإنَّ ذلك أقوى في بيانِ ضعف الإنسانِ وذُلِّه أمام قهر الله تَعالى[4].

غرض تنكير لفظ ﴿طَيْرًا﴾:

ينصر الله تَعالى بيتَه بما يشاء مِن جنده

في تنكير لفظ ﴿طَيْرًا﴾ وجوه محتمَلَة:

أحدُها: التَّحقير؛ وذلك لأنَّ تعذيبَهُم بشيء حقيرٍ أدلُّ على عظيمِ صنع الله تَعالى.

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 440.
(2) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 689.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 256.
(4) المراغيُّ، تفسير القرآن: 30/ 243.

والثّاني: التَّفخيم، فكأنَّ المعنى: طيرًا وأيُّ طيرا! ترمي بحجارة صغيرة، فتُصيبُ مقاتِلَ القوم[1].

والثّالث: النَّوعيَّة؛ لكونِه نوعًا من الطُّيورِ لم يكن معهودًا عند العرب[2].

والرّابع: التَّكثير، فقد كانت هذه الطَّير كثيرةً في أعدادِها، متفرِّقةً يتبع بعضُها الآخَرَ[3]، وكانت جندًا مِن جنود اللّه تَعالى التي لا يعلمُها إلّا هو، وكانت يومئذٍ جماعاتٍ متتابعاتٍ.

دلالة استعمال اللَّفظ الغريب ﴿أَبَابِيلَ﴾:

يدور معنى الإبالة حول الكثرة مع التَّلازم، وهي: القطعة أو الجماعة مِن الطَّير والخيل والإبل وغيرها[4].

الإيحاء بهول الموقف وغرابته، والتَّدليل على سلطان الله وقدرته

وقوله تعالى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، أي: كثيرة يتبع بعضُها بعضًا[5]، وفي التَّعبير باللَّفظ الغريب إيحاء بهول الموقف وغرابته؛ إذ كيف لطيور صغيرة الحجم أن تهلك هذا الجيش القويَّ؟ وإشارة أيضًا إلى أنَّ هذه الطَّير لم يُرَ قبلَها، ولا بعدَها مثلُها[6]؛ إذ كانت "طيرًا نشأت مِن البحر كأنَّها الخطاطيفُ، بكَفِّ كلِّ طيرٍ منها ثلاثة أحجُر مجزعة: في منقاره حجر، وحجران في رِجلَيْه، ثمَّ جاءت حتَّى صفَّت على رؤوسهم، ثمَّ صاحت، وألْقَتْ ما في أرجُلِها ومناقيرها، فما مِن حَجَر وقع منها على رَجُل إلّا خرج مِن الجانب الآخَر، إنْ وقَع على رأسه؛ خرَجَ مِن دُبُره، وإن وقع على شيء مِن بدنه خرج مِن الجانب الآخَر"[7].

وفي إيثار بعث العذاب مِن السَّماء طيرًا، لا مِن الأرض خسفًا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 291 - 292.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 549.
(3) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 30/ 294، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 540.
(4) الفراهيُّ، مفردات القرآن، ص: 136 - 137، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إبل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (إبل)، والماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 342 - 343.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 342، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 196.
(7) السُّيوطيُّ، الدُّرُّ المنثور: 8/ 631.

ولا مِن البحر إغراقًا لطيفة بديعة، وهي جعل أهل مكَّة ينظرون إلى السَّماء، جهة العُلوّ؛ ليروا أنَّ الله تعالى الذي في السَّماء هو الذي بعث على المعتدين على بيته وحرمه هذه الطَّيرَ الأبابيل، فيما لم تقدر أصنامهم أن تحرّك ساكنًا، ولطيفة أخرى في أنَّ الله سبحانه الذي بعث هذا العذاب مِن السَّماء سيبعث لهم رسولًا بشيرًا ونذيرًا، فأحرى بهم أن يتَّبعوه رغبًا ورهبًا.

بلاغة الوصف في ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾:

ثـراء الـدَّلالات بتعدُّد التَّأويلات

وصف الطَّير بكونِها أبابيلَ يقتضي أنَّها جماعاتٌ عظيمةٌ؛ وذلك أنَّها مِنْ قولِهم: فلان يؤبِّل على فلان، أي: يعظِّم عليه، ويُكثر[1].

وقد اختلف أهل اللُّغة: هل للأبابيل واحد مِن جنسه؟ فذهب قومٌ إلى أنَّه لا واحد له، كالعَباديد والسَّماطيط، وذهب آخرون إلى أنَّ له واحدًا، واختلفوا في واحده، فذهبت طائفة إلى أنَّ واحدَه (إبّالة) مشدَّدة، وذهبت أخرى إلى أنَّ واحِدَها (إبّول)، وقالت ثالثة: واحدُه (إبّيل)[2].

أمّا الإبّالَةُ؛ فهي الحُزمَة مِن الحَطَب، وفي أمثالهم: (ضِغْثٌ عَلَى إبّالَة)، والضِّغْث: قَبْضَة مِن حشيش مختلِطَة الرَّطب باليابس، ومعنى المَثَل: بَليَّةٌ على أُخرَى[3].

وعلى هذا الوجه يكون في الآية تشبيه بليغ؛ إذ شُبِّهت الطّائفة مِن الطَّير في تضامّها بالإبّالة - وهي الحزمة الكبيرة من الحطب - بجامع الكثرة والعِظَم والتَّضامّ[4].

أمّا على القول الأوَّل بأنَّ ﴿أَبَابِيلَ﴾ لا واحد لها؛ فيكون وصف الطَّير بها مِن باب المبالغة أو التَّأكيد؛ لكون المراد جماعات الطَّير[5].

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 197.
(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 343.
(3) الميدانيُّ، ومجمع الأمثال: 1/ 419.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 799، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 339، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 550.
(5) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 440.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ﴾ عن سابقه:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ﴾ عن سابقه؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال دفع إليه قوله: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾؛ إذ تشوَّف السّامع إلى معرفة فِعْل الطَّير، فسأل: وما صنعت هذه الطَّير بهم؟ فأجيب بقوله: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾[1].

مِن شأن الاستئناف البيانيّ أن يُفصَل عن سابقه، ويوطِّئ للاحِقِه

دلالة جملة: ﴿تَرۡمِيهِم﴾:

أصل الرَّمي: نبذُ الشَّيء[2]، تقول: رَمَيْتُ الشَّيء مِن يدي؛ إذا ألقيتَهُ، فارتَمَى، ورَمَيْتُ بالسَّهم رَمْيًا ورِمايَةً[3]، وقوله تعالى: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ﴾، أي: تُلقي عليهم، أو تَقذِفُهم، فالرَّمي يأتي بمعنى إلقاء شيء على شيء، ويأتي بمعنى قذفِ شيءٍ على شيء.

أعداءٌ منبوذون، وطيرٌ كالجنود يقاتلون

وهذا التَّعبير يجعل المتلقّي المعاصر يتصوَّر أسراب الطَّير الأبابيل كأنَّها أسراب طائرات حربيَّة مقاتلة، ترمي الأعداء بالقذائف المبيدة، وتوحي - بما في الرَّمي مِن معنى النَّبذ - بأنَّ هؤلاء المرميّين منبوذون مطروحون ممقوتون.

بلاغة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَرۡمِيهِم﴾:

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ﴾ في مقام الماضي (رمَتْهم)؛ لإرادَةِ حكاية الحال، واستحضار تلك الصّورة البديعةِ كأنَّها حاصِلَةٌ الآنَ[4]، ونظيرُهُ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: 9][5]، وهذه هي نكتة الخروج عن مقتضى الظّاهر.

حكاية الحال العجيبة، واستحضار الصّورة البديعة

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 257.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رمى).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (رمى).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 468.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 550.

فائدة استعمال مفردة الرَّمي دون القذف:

الـدَّلالـة على إصابة الهدف بدقَّة متناهية، ونبذ الطّائفة الباغية

يتقارب الرَّميُ والقذف في المعنى، فيُفسَّر أحدهما بالآخر؛ إذ تذكر المعجمات في معنى القذف أنَّه الرَّمي، وكلاهما يُستَعمَل في الأعيان والمعاني[1].

لكنَّ بينهما فرقًا دقيقًا، وهو أنَّ أصل الرَّمي: نبذ الشَّيء، ويُستَعمَل في الرَّمي بالسَّهم ونحوه، وأمّا القذف؛ فهو الرَّمي البعيد[2].

وعلى هذا فالتَّعبير بالرَّمي - الذي يأتي مع إصابة السَّهم في الهدف، مع إفادته معنى النَّبذ - فيه إشارة إلى أنَّ هذه الطَّير جاءت لأهداف محدَّدة، وكلُّ طائر منها قد أصاب هدفه بدقَّة، كالمقاتل الحاذق، وفيه إشارة إلى أنَّ هؤلاء المعتدين قد نُبِذوا، وطُرِحوا.

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ﴾:

إلصاق العذاب متناهي الإيلام بـمَـن أرادوا السّوء بالبيت الحرام

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3]، والإلصاق هنا حقيقيٌّ؛ إذ كان "مع كلِّ طير ثلاثةُ أحجار: حَجَران في رِجْليْه، وحَجَر في منقاره، فجَعَلَت ترميهم بها حتَّى جَعَلَهم الله ﷻ كعَصفٍ مأكول"[4].

فأداة الطَّير صغيرة الحجم لكنَّها كبيرة الأثر، وهذه الحجارة كانت وسيلة مباشرة للعذاب، لا مجرَّد شيء يسقط عرضًا، وهذا مِن أدلَّةِ قدرة الله تعالى؛ إذ أهلك جيشًا عظيمًا بآلَة صغيرة تستهين بها أعينُ النّاس، لكنَّها أصابت أهدافها بدقَّة؛ إذ كان يقتل كلُّ طائرٍ رَجُلًا واحدًا، وقد كان مكتوبًا على كلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحِبه، فكان يقع

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رمى، قذف).

(2) ابن فارس، مقاييس، والرّاغب، المفردات: (رمى، قذف).

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 615.

الحجرُ على موضعٍ من بدنِ أحدِهِم، فيخرُجُ مِن الجانبِ الآخَر، وإذا وقع الحجرُ على رأسه؛ خَرَج مِن دُبُرِه[1].

نكتة تنكير (حِجارَةٍ):

يجوز في تنكير (حِجارَةٍ) أن تكون للتَّكثير؛ إذ كان كلُّ طائرٍ يحمل ثلاثةَ أحجار[2].

حـجـارةٌ مِـن سِجِّيلٍ كثيرةٌ في عددها، صغيرةٌ في حـجـمـهـا، عظيمة في أثرها

وإذا كانت هذه الطَّيرُ جماعاتٍ كثيرةً؛ فإنَّ عدد الأحجار أكثر مِن عدد هذه الطَّير المؤبَّلة؛ لكون الطَّائر الواحد يحمل ثلاثة أحجار.

ويجوز أن يكون التَّنكير للتَّحقير، فقد كان كلُّ حَجَر فوقَ حَبَّة العَدَس، ودون حَبَّة الحِمَّص[3]، وهي - على الرُّغم مِنْ هذا الصِّغر - كانت مهلكة فاتكة، فكان الحجر إذا أُلقي على رأس صاحبه خرج مِن دُبُرِه، ممّا يدلُّ على طلاقة قدرة الله تعالى، وهوان هؤلاء المعذَّبين.

ويجوز أن يكون التَّنكير للنَّوعيَّة، فهي حجارة مِن نوع خاصٍّ، لا ممّا عرفه النّاس على الأرض، بل هي حجارة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾.

ويجوز أن يكون التَّنكير للتَّعظيم بالنَّظر إلى أثرها، فقد ردَّ الله تعالى بها جيشًا عرمرمًا جاء مِن اليمن، ولم تستطع قوَّة أن توقفه حتَّى وصل إلى مكَّة.

هذا، والنِّكات البلاغيَّة تتوارَدُ، ولا تتعارض، فكلُّ ما سبق مِن معاني التَّنكير تتكامل، ولا تتناقض، فهذه الحجارة حجارة فاتكة؛ لأنَّها مِن نوع خاصٍّ، مِن سجِّيل، مطبوخة في جهنَّم، وهي كثيرةٌ في عددها؛ لتستوعب الجيش كلَّه، صغيرةٌ في حجمها؛ لإظهار قدرة الله تعالى، عظيمةٌ في أثرها؛ إذ جعلت العتاة الطُّغاة كرجيع البهائم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 292.
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 24/ 330.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 544.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالَتُها في قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾:

حجارة طُبِخَت بنار السَّعير، أذاقتهم العذاب المستطير

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية، زمانيَّةً أو مكانيَّة[1]، وقد جاءت هنا دالَّةً على التَّبعيضِ، وهذا راجع إلى معنى الابتداء أيضًا، كأنَّ مبدأ الحجارة ومصدرها هو سجيل، فقد جعل ﴿سِجِّيلٍ﴾ ابتداءَ الحجارة، فهي منه، فدلَّ على التَّبعيض، "كأنَّه قيل: بحجارة مِن جملة العذاب المكتوب المدوَّن"[2].

دلالةُ التَّعبير بمفردة ﴿سِجِّيلٍ﴾ على تقدير العذاب وكثرته:

عذابٌ مقدَّرٌ تقديرًا، وكان كثيرًا على الكافرين عسيرًا

السِّجِّيل: هوَ حَجَر وطين مختلطٌ[3]، "و﴿سِجِّيلٍ﴾: كأنَّه عَلَم للدِّيوان الذي كُتِب فيه عذاب الكُفّار، وأيضًا فإنَّ سِجِّينًا عَلَمٌ لديوان أعمالهم، كأنَّه قيل: بحجارة مِن جملة العذاب المكتوب المدوَّن، واشتقاقُه مِن الإسجال، وهو الإرسال؛ لأنَّ العذاب موصوفٌ بذلك: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]"[4]، فوصف العذاب بأنَّه مُرسَل إلى أقوام معيَّنين.

والتَّعبير بهذا اللَّفظ فيه إشارة إلى أنَّ هذا العذاب "هو ما كتبه اللّه عليهم في اللَّوح المحفوظ، مِن السِّجِلِّ، وهو الكتاب، وقيل: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، أي: ممّا صبه اللّه تعالى عليهم، والسَّجْل: الدَّلو الممتلئ ماءً"[5]، ومعنى كون الحجارة مِن الدَّلو أنَّها متتابعة كالماء الذي يُصَبُّ مِن الدَّلو، ففي هذا استعارةٌ مكنيَّة تخييليَّة، كقوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: 13]، وحاصل المعنى: حجارة كائنة ممّا حبسه اللّه تعالى مِن خزائن قهره[6]،

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 201، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 469.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (سجل).
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 799.
(5) أبو حفصٍ النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 488.
(6) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 441.

فدلَّ اللَّفظ على تقدير العذاب وكثرته، مع ما فيه مِن الرِّعاية على الفاصلة.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾:

الفاء معناها التَّعقيب بلا مهلة، مع إفادة التَّرتيب، أي: إنَّها تفيد الاتِّصال[1]، وقد ربطت ما قبلها (الرَّمي) بما بعدها (الهلاك) ربطًا مباشرًا سريعًا بلا مهلة.

تعقيب الهلاك على الرَّمي بالحجارة؛ لبيان القدرة العظيمة الجبّارة

وهذا يدلُّ على إظهار سرعة نفاذ العقوبة، وكأنَّ النَّتيجة لحظيَّة، ممّا يثبّت في ذهن السّامع قدرة الله سبحانه، ويبيّن كذلك أنَّ أمْرَه لا تأخير فيه، فعلى الرُّغم مِنْ صغر الحجارة التي أهلكتهم؛ جاءت النَّتيجة مباشرة بعد الرَّمي بلا فاصلٍ يدلُّ على مهلة أو مقاوَمة، وكأنَّ هذا الجيش الكبير العرمرم قد انكسر، وانهزم، وتفرَّق، وتبدَّد في لحظة واحدة.

نوعُ فِعْلِ الجَعْل ودلالتُه في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾:

تحويل حالهم مِن البشر الأقوياء إلى كومة محطَّمة مِن الأشلاء

فعل (جَعَلَ) عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعَمُّ مِن (فَعَلَ) و(صَنَعَ) ونحوِهما[2]، ومعناه المحوريُّ: تحويل شيءٍ إلى حالٍ أو هيئة خاصَّةٍ[3].

والجعل هنا معناهُ التَّصيير، وفي التَّعبيرِ بهِ مبالغة بديعَةٌ؛ وذلك أنَّه لم يَكْفِهِم أن جعلهم أهونَ شيء مِن الزَّرع، وهو ما لا نفعَ فيه، حتَّى جعلهم رَجيعًا، "والمعنى: جعل الله تعالى أصحابَ الفيل كوَرَقِ الزُّروع؛ إذا أكله الدَّوابُّ، فرَمَتْ به مِن أسفل"[4].

دلالة كاف التَّشبيه في ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾:

صاروا بعد القوَّة العاتية، كالزَّرع راثَتْه الماشية

الأصل في معنى (الكاف) أنَّه موضوع للدَّلالة على التَّشبيه[5]،

(1) المراديُّ، الجنى الدّاني، ص: 61.
(2) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (جعل).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 20/ 502.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصّل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 502، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 60.

أي: تشبيه الشَّيء بالشَّيء مِن وجه واحد لا يكون مثله في الحقيقة، ويفيد التَّشبيه بالكاف تشبيه الصِّفات بعضها ببعض، فقوله تعالى: ﴿كَعَصْفٍ﴾، أي: يشبهه في بعض صفاته.

وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه:

الأوَّل: أنَّه شبههم بالتِّبن إذا أكلته الدَّوابُّ، ثُمَّ راثَتْهُ، فجَمَعَ التَّلفَ والخِسَّةَ والقذارةَ، ولكنَّ اللّه كنَّى عن هذا على حَسَب أدب القرآن.

والثّاني: أنَّه أراد ورق الزَّرع؛ إذا أكلتْهُ الدّود.

والثّالث: أنَّه أراد كعصفٍ مأكولٍ زرْعُه، وبقي هو لا شيء[1].

بلاغة استعمال مفردة (عَصْفٍ):

العَصْفُ: هوَ ما على الحَبِّ مِن قُشور التِّبْن، ويُطلَقُ العَصفُ أيضًا: ما على ساقِ الزَّرع مِن الوَرَق الذي يَبِس، فتَفتَّتَ، أو هو كُلُّ زَرعٍ أُكِلَ حَبُّه، وبَقيَ تِبْنُهُ[2]، ويُقال لحُطام النَّبت المُتكسِّر: عَصْفٌ[3].

أرادوا تحطيم البيت العتيق، فجعلهم الله حطامًا بكلّ طريق

وسُمِّي ورق الزَّرع عصْفًا؛ لأنَّ مِنْ شأنه أن يُقطَع، فتَعصِفُه الرِّياح، أي: تذهب به في كُلِّ مكانٍ[4].

وقد أوثِر التَّعبير بلفظ العصف؛ لكونه الأنسب في وصف حالِ هلاك هؤلاء الطُّغاة، الذين أرادوا تحطيم بيت اللّه الحرام، فكان جزاؤهم أن جعلهم اللّه تعالى حطامًا؛ جزاءً وفاقًا.

نكتة تنكير لفظ (عَصْفٍ):

التَّحقير والتَّصغير مِن شأن كلِّ قوَّة تتحدَّى المليك القدير

جاء لفظ (عَصْفٍ) نكرةً؛ لإفادة التَّحقير والتَّصغير، فالعصف هو ورق الزَّرع اليابس الذي تذروه الرِّياح، وهو أدنى ما يكون مِن الهوان والضَّعف، وهذا يُبرِز الفَرق الكبير بين هيبة الجيش ساعة

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 541، وابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 513.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عصف).
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (عصف).
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 518.

خروجه مِن اليمن، وبين خِسَّته بعد نزول العذاب، فكلُّ قوَّة تتحدَّى الله سبحانه مصيرُها إلى الزَّوال مهما عظمت.

فائدة التَّعبير باسم المفعول ﴿مَّأْكُولٍ﴾:

المبالغة في إهلاكهم، وإبطال كيدهم وتدبيرهم

معنى ﴿مَّأْكُولٍ﴾ أنَّه قد أُكِل ما فيه مِن الحَبِّ أو أكلَتْه الدَّوابُّ، وراثَتْه، فكان الحَجَر يقع على أحدهم، فيُخرِج كلَّ ما في بطنه، فيبقَى كقِشْر الحَبَّة؛ إذا بَقيَ بعد خروج الحَبَّة منه[1]، وفي التَّعبير باسم المفعول ﴿مَّأْكُولٍ﴾ مبالغة بديعَةٌ؛ وذلك أنَّه لم يَكْفِهِم أن جعلهم أهونَ شيء مِن الزَّرع، وهو ما لا نفعَ فيه، حتَّى جعلهم رَجيعًا[2].

بلاغة وصف العصف بأنَّه مأكول في تشبيه مهلك القوم:

زيادة في الإهانة، وإشارة إلى فساد الهيئة

في تشبيه جيشِ أبرهةَ الأشْرَم - بعد حلولِ العذاب بهم وإهلاكِهم بالعصف المأكول - تصويرٌ بديعٌ على الرَّغم مِن الإيجاز الشَّديد في التَّعبير القرآنيِّ، فالعصفُ المأكول منه ما تبتَلعُه الأنعامُ والدَّوابُّ، ومنه ما تأكل منه شيئًا، وتدوسُ باقيه، ومنه ما تأكل أوراقَه، وتذَرُ أعوادَه وقُضبانَه، وكلٌّ مِن المأكول والمتروك يُقال له: عصفٌ مأكول، أي: مأكولٌ كلُّه، ومأكولٌ بعضُه دون سائره.

فالعصف المأكول ثلاثةُ أقسام: ما هُضِم، وتحوَّل روثًا، وداسَتْهُ الدَّوابُّ، فتقذَّر فضلاتٍ، وما أكلَتْ أوراقَهُ، وبَقيَت أعوادُه وقضبانُه حطبًا ووقودًا.

وكذلك أصحاب الفيل، صاروا أقسامًا ثلاثةً: فقِسمٌ منهم أنتن حتَّى صار مِثلَ رَوث الدَّوابّ والأنعام، وقِسم منهم تجمَّع مُتحطِّمًا متداخلًا بعضُه ببعضٍ، كالحشيش الجافّ الذي أكلَتْ منه الدَّوابُّ، وداسَتْ ما بقي منه، وقسمٌ منهم متناثرٌ، كالأعواد التي الْتَقَطَت

(1) مكّيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 12/ 8449.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 11/ 110.

منها الأنعامُ والدَّوابُّ الأوراقَ الصّالحة للأكل منها، وارتَمَت الأعوادُ والقُضبانُ متناثرةً[1].

بلاغةُ تصوير مشهد الطَّير والحِجارة والهلاك:

صـورة بصريَّة متتابعة تجلّي قـدرةَ الـلـه في هلاك المجرمين

في آيات السّورة الكريمة خيط تصويريٌّ متَّصل؛ إذ بُني فيها مشهدٌ بصريٌّ متتابع، فالطَّير تُذكر في جماعات (ترمي) بالحجارة، والحجارة تأتي مقترنة بـ(سِجِّيل)، وفيه الهلاك، والهلاك يجيء مرتبطًا بـ(عصف).

فالملاحَظ أنَّ كلَّ عنصر مِن هذه العناصر الثَّلاثة قد جاء موصوفًا، فالطَّير وُصِفت بأنَّها ﴿أَبَابِيلَ﴾، والحِجارة وُصِفت بأنَّها ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾، والهلاك شُبِّه بالعصف، وقد وُصِف هذا العصف بأنَّه ﴿مَّأْكُولٍ﴾.

فجاءت كلُّ صورة مرتبطة بأختها تَجرُّها معها؛ لتكوين مشهد يُجلّي قدرة الله تعالى في ذهن المتلقّي.

لطيفةُ عدمِ ذِكْرِ هذه القِصَّة في القرآن خلافًا للقصص الأخرى:

إهـلاك أصحاب الـفـيـل لـيـس لأجـل تـكـذيـب أحد المرسلين

انفردَت هذه السّورةُ بذكر أصحاب الفيل، ولم تُذكَر قِصَّةُ إهلاكِهم في غيرها من سور القرآن، خلافًا لقصص غيرهم مِن الأُمَم، وذلك لوجهين:

أحدُهما: أنَّ إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسولٍ مِن رُسُلِ الله تَعالى، وإنَّما صيانَةً ورعايةً لبيت الله الحرام.

وثانيهما: ألّا يغترَّ المشركون بمكانةٍ لهم عند الله تَعالى، كاغترارِهم بقولهم المحكيّ في قوله تعالى: ﴿*أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ

(1) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 18 - 19.

ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ الآية [التَّوبة: 19]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: 34][1].

بلاغة رد عجز السّورة على صَدْرِها:

تَناسبُ مقاطعِ سـوَرِ الـقـرآن الـكـريـمِ مَـعَ مَطالِعِها

لمّا افتُتحت السّورة بسؤالٍ يَستنهِض الوجدان عن قُدرة الملِك الدَّيّان؛ خُتِمت بتصوير تلك القُدرَة مِن خِلالِ تصويرِ مَشهدِ هلاكِ المجرمين المعتدين، فجَمَعت بذلك بين الإثارةِ الذِّهنيَّة والبيان الواقعيّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكيد والمكر:

الكَيدُ أقوَى مِن المكر

الكَيدُ أقوَى مِن المكر، والمكرُ: هو التَّدبيرُ الخَفيُّ لإلحاق الضَّرر بالآخر، ولا يعلم ذلك المكور به، فلو قال له: أقدر أنْ أفعل بك كذا؛ لم يكن ذلك مكرًا، وإنَّما يكون مكرًا؛ إذا لمْ يُعلِمه به، والكيدُ: اسمٌ لإيقاعِ المكروه بالآخر قهرًا سواء عَلِمَ به أم لمْ يعلَم، والشّاهد قولك: فلانٌ يكايدني، فسُمّي فعلُه كيدًا، وإنْ عَلِمَ به[2]، والكَيدُ: الاحتيالُ على إلحاق ضُرٍّ بالآخر ومعالجة إيقاعه[3].

وقد أوثِر لفظُ (الكَيد) دون (المكر) في قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾؛ لأنَّ أبْرَهةَ ومَن معه أعَلنوا أنَّهم يُريدون هَدْمَ الكعبةِ وبيتَ الله الحرام، وعَلِمَ بذلك العَربُ قبل مجيءِ أصحابِ الفيلِ إلى مكَّة، فأرادوا أنْ يَكيدوا قريشًا بالقَتلِ والسَّبي، والبيتَ بالتَّخريبِ والهَدم[4]، ولمّا كان الكَيدُ أقوى مِن المَكْر؛ كان في وقوع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 544.

(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259، 260، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ: 6/ 34، 10/ 169، 170.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548.

(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 189، 20/ 195.

التَّقرير على ما فعلَ اللّه بهم مِن تضليلِ كيدِهم دلالةٌ على عظيم قدرةِ اللّه ﷻ[1].

ولِزيادة بيانِ عظيمِ قدرتِه وقوَّتِه ﷻ جاءت ظرفيَّةُ الكيدِ في التَّضليل، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّة، استُعير حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ لمعنى المصاحبة الشَّديدة، أي: أبطلَ اللّه كيدَهم بتضليل، أي: مصاحبًا للتَّضليل لا يفارقه، والمعنى: أنَّه أبطلَه إبطالًا شديدًا؛ إذ لَم ينتفعوا بقوَّتهم مع ضعفِ أهل مكَّة وقلَّة عددِهم، وهذا كقول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٧﴾ [غافر: 37]، أي: في ضياعٍ وتَلَفٍ، وقد شَملَ تضليلُ كيدِهم جميعَ ما حَلَّ بهم مِن أسباب الخَيبة وسوء المُنقَلَب[2].

الحجارة والصُّخور:

يُفَرَّق بينهما بأنَّ الصُّخورَ: هي الحِجارة العظيمة الصُّلبة[3]، فلا يقال لحَجَرٍ: إنَّه صَخْرةٌ إلّا إذا كان حَجَرًا عظيمًا قد بلغَ حجمُه مبلغَ حَجم الصُّخور؛ ولذا أوثِر لفظ (الصَّخْر) دون (الحجارة) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: 9]؛ أي: قَطعوا الصَّخرَ، ونَقَبوه، ونَحَتوه حتَّى جعلوه بُيوتًا، كما في سورة الشُّعراء: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشُّعراء: 149][4]، وهذا يدلُّ على أنَّ الصَّخرَ لا يكون صغيرَ الحَجم.

الصُّخورُ هي الحِجارة العظيمة الصُّلبة

وأوثِر لفظ (الحِجارة) دون (الصُّخور) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾؛ لأنَّ تلكَ الطَّيرَ كانت تَحملُها، والذي يتبادر إلى الأذهان أنَّ الطَّيرَ لا تحمل صخورًا بل حجارةً صغيرةً، وكان كلُّ حَجَرٍ مِن تلك الحِجارةِ في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 549.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 548، 549.
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صخر).
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 268، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 748، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 320.

مِقدارِ العَدَسة، وفي مِنقارِ كلِّ طائرٍ منها واحدٌ، وفي كلِّ رِجلٍ واحدٌ، فكانت تلكَ الحجارةُ عظيمةً في الكَثرة والفِعل، صغيرةً في المِقدار والحَجم[1].

وفي ذلك زيادةٌ في الدَّلالةِ على عظيمِ قدرة الله ﷻ؛ إذْ أرسلَ اللّه طيورًا تقتلُ جيشًا دوَّخَ الأبطالَ بحجارةٍ صغيرةِ الحَجمِ عظيمةِ الفِعل[2].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 257.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 256.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والستون،
من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 68 ، 828 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-42-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 68 : المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-42-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7916426 بتاريخ 2026/01/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"